الترجمة التاريخية في مدونة إسماعيل العربي سقوط غرناطة ومذكرات الكولونيل سكوت أنموذجا.

Historical translation in Ismail al-Arabi's blog, The Fall of Gharana, and Colonel Scott's Memoirs as a Model.

د. حفيظة بشارف.

جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة / الجزائر.

Hafidabecharef169@gmail.com

الملخص:

نعرض في مقالنا رحلة الكولونيل اسكوت من إسبانيا إلى المغرب ثم من زمالة الأمير عبد القادر بعنوان:

A journal of residence in the esmailla of Abdelkader, and of travels in Morocco and Algiers, by colonel Scott.

كتب الكولونيل اسكوت رحلته في شكل يوميات بداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر، نشرت في لندن سنة 1942، ترجمها الدكتور إسماعيل العربي ونشرت سنة 1981م، وهي من النصوص القلائل التي نقلت صورة من عادات وتقاليد المغرب العربي في ظل النظام القبلي، كما نقلت أوضاع المرأة والمسيحيين واليهود وصورة الأمير المؤسطرة في بداية الاستعمار.

Abstract:

This article which deals with colonel Scott's tour from Spain to Morocco, and then to his colleague emir Abdelkader, is entitled:

A journal of residence in the Esmailla of Abdelkader, and of travels in Morocco and Algiers, by colonel Scott.

Colonel Scott wrote about his trip in the form of a diary at the beginning of 1940s. this diary was published in London in 1942, and then translated to Arabic

by Dr. Ismail El Arabi to be published Arabic version in 1981. As a matter f fact, Scott's ddiary is one of the fewest manuscripts which depicted some customs and traditions of the Arabic Maghreb under the tribal system. Moreover, it exposed the issues of women, Christians jews and more importantly the idolized character of emir Abdelkader especially at the onset of colonialism.

I. مقدمة:

تعد الرحلة الجنس الأدبي الأكثر تحرراً من حيث تطور الشكل، بعيداً عن الممارسات النقدية الأكاديمية التي يحكا الجانب التأريخي، كونها على صلة مباشرة قوية بالعال الواقعي المفعم بذات الإنسان ومشاعره الحقيقية المرهونة بتجارب فريدة ونوعية قلما تتوفر لإنسان، من ثمّ ابتعدت دراسات الرحلة عن قضايا الشكل والأسلوبية والشعرية اهتمت بموضوعات أقرب للثقافة منها للأدبية، كالهوية والصورة والعادات والتقاليد، وكل ما يخص المجتمع من وجهة نظر الآخر المختلف كلية، وفي إطار رؤية ذات بشرية، لا تُشترط فيها المعرفة أو الكتابة حتى تك بمثابة الراوي الذي ينقل الذي ينقل ما يريد في شكل علاقات اجتماعية واقتصادية ودينية متمظهرة في أنماط لغوية كالوصف والسرد الحوار والحديث النفس، فيها من الحقيقة وفيها من الخيال والتأويل.

II. من هو الكولونيل اسكوت:

الكولونيل اسكوت ضابط في جيش المشاة الثامن الإسباني، شارك في الحرب الإسبانية بين المتحررين والملكيين (1833-1839)، ونتيجة لجرح قرر المجلس الطبي عدم صلاحيته للخدمة، فقرر السفر إلى تكدمت لمناصرة الأمير في حربه العادلة ضد الفرنسيين، انطلق من مدريد إلى الجزيرة الخضراء حيث تعرف على السيد مانوتشي الذي كان قائما على أعمال المير عبد القادر في جبل طارق، فعرض السيد مانوتشي على الكولونيل اسكوت أن يكون رئيسا لأركان حرب الأمير[1].

يورد لنا الكولونيل اسكوت الكثير من المشاهد الاجتماعية في المغرب والجزائر تبين صورة المسيحي في هذين البلدين، فكثيرا ما يدخل الكولونيل اسكوت القرى والمدن متخفين في زي العرب حتى يتجنبوا الإهانات ومحاولات السطو "عندما وصلنا إلى باب مدينة تيطوان، لبسنا جميعا "برانس وطرابش"، وذلك حتى نتجنب التعرض لإهانة بعض السكان، الذين يرون في دخول مسيحي إلى داخل البلد شيئا جديدا ومثيرا، حيث أنه لم يكن بالمسموح للمسيحيين بالمرور في هذه البلاد منذ عدّة قرون، وذلك فيما عدا الذين يعنقون الإسلام"[2].

III. الصور الاجتماعية في مدونة الكولونيل اسكوت:

1. حال اليهود:

لم تختلف كثيراً حال اليهود في المجتمع المغاربي عن حال المسيحيين، فقد نقل لنا الكولونيل اسكوت صورة هذه الطبقة المهمشة في ظلّ المجتمع الإسلامي المركز، وهم فئة اجتماعية مهمة جدّاً في المجتمع المغاربي لما نقلوه من صنائع من بلاد الأندلس كالصياغة وصناعة العطور وطرز الملابس، إلاّ أنهم يعيشون في مجتمع داخلي متقوقع معزول ماديا وثقافيا، "واليهود في تيطوان مثلما هم في جميع المدن التي تسود فيها الديانة الإسلامية– يعيشون في حي خاص بهم ويعاملهم المسلمون على أساس أنهم أقل شأنا. ولكن المسلمين يسمحون لهم بالعيش في بلدهم كما يحثهم القرآن الذي يمنحهم الحماية باعتبارهم من الذميين الذين يخضعون للحكام المسلمين"، ".... وأما القرية التي يقطنها اليهود، فهي تقع على منحدر إحدى الهضاب ويحيط بها حائط مبني بالحجر يبلغ ارتفاعه نحو 12 قدما..."[3]، فهذا الانغلاق هو السمة الوحيدة الدائمة التي تنتشر في العديد من المدن الإسلامية، وفق القبائل والعشائر والأعراق والمذاهب، فقد احتل اليهود والنصارى الذين لم يدخلوا الإسلام القطاعات المحددة والمميزة حيث تجمعوا، فلا تكاد تخلوا مدينة من المدن التي مرّ بها الكولونيل من وجود اليهود،...ورغم نسبتهم الضئيلة في المجتمع إلا أنهم شريان الحياة الاقتصادية، لكن الممارسات السلطوية العربية الإسلامية تحاول أن تحد من نفوذ هذه الطبقة حتى

لا تخرج عن الحيز الثقافي والاقتصادي والاجتماعي المرسوم لها في إطار الصراع الديني" والتجار اليهود في المغرب الأقصى، مثلما هي الحال في الجزيرة العربية، هم الذين يمارسون النشاط التجاري الأساسي، ولكنهم كثيرا ما يجبرون على تحويل ثرواتهم إلى الحكام، بسبب ارتفاع الضرائب والجزية المفروضة عليهم.

2. مكانة المرأة:

يصف الكولونيل اسكوت بعض المظاهر النسوية اليومية والاحتفالية من زوجة السلطان إلى الأمة، "وفيما يتعلق بالجنس اللطيف، فإن من المستحيل، بصفة عامة أن تقع عيناك على سيدة في هذا الجزء من العالم، ولكنه في هذه القضية أيضا، لا توجد قاعدة بدون استثناء! وهذا يتضح في الحادث التالي الذي وقع عقب وصولنا بوقت قصير:

السطوح في المغرب تشبه السطوح في كثير من البلدان الشرقية. والاتصال بين سطح وآخر يتم بدون صعوبة. ونظراً لأننا نهتبر نوعا من الحيوانات الغريبة، فإننا لا نستطيع الصعود إلى السطح دون أن نشاهد على السطح المقابل صفوفا من النساء العربيات واليهوديات اللائي يحاولن اختلاس نظرة إلينا"، "وجدنا منظراً مؤثراً للغاية، زوجات الأغا الأربع وقد ركبن في هوادج محملة على ظهور الجمال ... كان في المسيرة عدد كبير من الأطفال شبه عراة وأمهاتهم الملفوفة في "الحايك" ... وكثير من النساء اللائي ينتمين إلى الطبقة السفلى لا يغطين أوجههن... وبعضهن موشمات معظم القبائل الجبلية، تشبه إلى حد كبير القبائل النيوزيلاندية، ولا سيما النساء اللائي يستعملن نفس الطرق لوشم الوجه والرجلين"[4].

IV. إسماعيل العربي:

1. مولده ونشأته:

ولد إسماعيل واعراب –وهو لقبه الحقيقي– بإحدى قرى سيدي عيش ببجاية حيث نشأ وترعرع، وفي كتاتيبها تعلم العربية والقرآن، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية بالمدارس الحكومية الفرنسية، انتقل سنة 1942م إلى مصر فأقام بها ست سنوات أكمل خلالها دراسته الجامعية (ليسانس في الآداب)، وفي مصر

اختار لقب العربي بدل "واعراب" بطلب ممن عرفه من المشارقة الذين استثقلوا النطق به، فارتضاه لنفسه لقبا لتوافق المعنيين في العربية ولسان البربر، وصدرت بهذا الاسم أولى مقالاته عن تاريخ الجزائر بالدوريات الجامعية بالقاهرة ، وعند عودته إلى الجزائر أوكلت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مهمة تنظيم التعليم العربي وعينته رئيسا للجنة التعليم العليا ومديرا للمكتب الدائم الذي يشرف على تسيير هذا النظام، وفي الوقت نفسه كان يصدر مجلة للدراسات الأدبية والتاريخية عنوانها: "مجلة إفريقيا الشمالية".

2. حياته العلمية:

إنه لمن المؤسف أن يجد الباحث صعوبة في الترجمة لعلم من أعلام الجزائر وقد أسهم في الكتابة التاريخية بما خلفه من رصيد علمي مهم، عكسته إنجازاته العديدة حول تاريخ الجزائر خاصة وبلاد المغرب والأندلس عامة، فضلا عن خوضه معترك تحقيق الكتب التراثية والترجمة عن الفرنسية والانجليزية، ولولا آثاره هذه لاكتنفه النسيان، إنه المؤرخ والكاتب إسماعيل العربي، الذي يصدق عليه قول أحدهم:

آثاره تغنيك عن أوصافه حتى كأنك بالعيان تراه

وقد خيّل إليّ بداية أن إسماعيل العربي يسهل التعريف بشخصه وبمساره العلمي لشهرة تداول اسمه في مكتبة التاريخ الجزائرية خاصة والعربية الإسلامية عامة بيد أن الأمر من الصعوبة بما كان[5]، ذلك أن أعماله التي نشرها –وقد فاقت 60 عنوانا – بمختلف أنواعها (المحققة والمترجمة والمبتكرة) لم يرد في واحد منها ذكر سيرته الذاتية، وعلى فرض أن هذا الأسلوب لم يكن متداولا بكثرة لدى دور النشر في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، فإن الجهالة أطبقت على ترجت عبر شبكة الأنترنيت، وهي أوسع مجال البحث وأسرعها في الوقوف على المعلومة كالموسوعات الشهيرة والمتخصصة ومنها ويكيبيديا التي لم تفرد له ترجمة، ولا حتى المواقع الخاصة بأعلام الجزائر صنفت له بطاقة على كثرتها، وعندما أعيد طبع بعض كتبه ضمن تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية عام 2007م لم يبادر المشرفون على هذا العمل بذكر سير أصحاب الأعمال المنشورة.

ولهذا اعتمدت في سرد حياته العلمية على شذرات ما كتبه هو عن نفسه في مقدمات مؤلفاته وهوامش إحالاته، أو ما التقطته مشافهة عن بعض أقرانه ومن عاصره عن قرب.

وأطلّ على القراء الجزائريين من خلال جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين، ومن أشهر مقالاته المثيرة للجدل، تلك التي ناقش فيها نظرية مالك ابن نبي في كتابه "شروط النهضة" الصادر باللغة الفرنسية سنة 1948م، وكان عنوانها "ما هي شروط النهضة الجزائرية"، مبديا استغرابه من خلطه المتعمد في ترتيب أفكاره وفلسفتها، ثم ردّ عليه في مقالة أخرى مدافعا هذه المرة عن جمعية العلماء التي انتقدها مالك ابن نبي في الكتاب ذاته، حين أبانت عن رغبتها السياسية، وذلك عندما توجه علماؤها إلى باريس لعرض مطالب الشعب الجزائري، مما اعتبره –حسب رأيه– انحرافا عن مسارها التربوي والإصلاحي.

وبعد أربع سنوات من العمل في هذا الميدان التحق بجامعة السربون، وتخرج منها سنة 1954م حاملا شهادة الدراسات العليا في العلوم التاريخية والاقتصادية[6]، وفي فرنسا كلفته جمعية العلماء المسلمين بالإشراف على نواديها التعليمية إلى جانب ثلة من علمائها بداية من سنة 1956م، ثم انتقل بعدها إلى بنغازي في ليبيا فعين مديرا لشؤون الصحافة في مكتب رئيس الوزراء لمدة سنة، ومع بداية الستينات سافر إلى لندن حيث اشتغل بالتدريس والصحافة لمدة أربع سنوات، وبقي بعدها سنة بأمستردام، وعند عودته إلى الجزائر شغل عدّة مناصب إدارية إلى جانب مهنة التدريس في الجامعة الجزائرية، منها نائب رئيس لجنة تمويل التكنولوجيا التابعة لمجلس مؤتمر التجارة والتنمية المتفرع عن الأمم المتحدة 1970–1971م، كما عمل مندوبا في وفد الكويت الدائم للأمم المتحدة بجنييف لمدة ثماني سنوات، ثم مستشارا ثقافيا للشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وأستاذا محاضرا بمعهد اللغات الحيّة بجامعة الجزائر 1979–1980م ومدرسا بكلية الآداب– قسم التاريخ والعلاقات السياسية، وأستاذا محاضرا بالأكاديمية العسكرية لمختلف الأسلحة بشرشال، وكان له برنامج إذاعي خاص عن الصحراء الكبرى وشواطئها، إلى جانب مشاركته في عدد من المؤتمرات والملتقيات الدولية والوطنية، وله عدّة مقالات في مختلف المجلات والدوريات داخل الوطن وخارجه.

3. آثاره:

إن ما يلفت انتباه الباحث عن الحياة العلمية لإسماعيل العربي هو كثرة سفره وترحاله بين مختلف دول العالم، إما زائرا لمكتبات ومتاحف عالمية، أو باحثا عن مخطوطات نادرة، وهو ما مكنه من الإطلاع على كنوز مصادرنا التراثية وربط علاقات وطيدة مع باحثين عرب وأجانب في رحلة زمنية استغرقت منه أزيد من عشرين سنة على الرغم من جمعه بين ثلاث مهن شاقة ومتعبة، وهي الصحافة، والتعليم، والعمل الدبلوماسي، وقد عكست مجهودات الحثيثة تحقيق مجموعة من هذه المخطوطات، ومنها[7]:

- كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي.
- كتاب سير الأئمة الرستميين وأخبارهم لأبي زكريا يحي.
- سير مشايخ المغرب لأبي الربيع الوسياني.
- كشف الغمة في أخبار الأمة لسعيد بن سرحان العُماني.
- تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي.
- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الغرناطي.
- نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد بن المهدي الغزال.
- رسالة في الجغرافيا لمؤلف مجهول من الأندلس (ق6هـ).
- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس وهو قطعة من كتاب نزهة المشتاق لشريف الإدريسي.
- المقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان القرطبي.
- كتاب تقويم البلدان للملك الصالح إسماعيل أبي الفداء.
- العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع للريّس إبراهيم (ق16).

ومن مؤلفاته التاريخيّة نجد:

- دولة بن زيري ملوك غرناطة.

- دراسات في تاريخ الجزائر الحديث.
- المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر.
- العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر.
- دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة.
- دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية..
- المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.
- جدول المطابقة بين التقويم الهجري والميلادي.
- الإسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية.
- معجم الفرق والمذاهب الإسلامية.
- دور المسلمين في تقدم الجغرافية الصف والفلكية.
- الصحراء الكبرى وشواطئها.
- معركة سيدي إبراهيم.
- ثورة الزيبان 1841م.
- معجم الحواضر الإسلامية.
- الرحالة والمستكشفون المسلمون في القرون الوسطى.
- المسلمون والملاحة البحرية.
- معجم الجغرافيين والفلكيين العرب.

4. ترجماته:

ومن الكتب التي ترجمها للعربية عن أصولها الفرنية والإنجليزية نجد:

- الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا لجوزيف رينو.

- مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة المير عبد القادر.
- الإسلام في مجده الأول لموريس لومبار.
- العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1816– 1876م) لراي ايروين.
- مذكرات أسير الداي، كاثكارت قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في المغرب.
- الدراسات العربية في الجزائر خلال قرن من الاحتلال الفرنسي لماسي وآخرين.
- قصر الحمراء في الأدب والتاريخ لواشنطن ارفينج.
- سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام لواشنطن ارفينج.

يعدّ إسماعيل العربي من علماء الجزائر المعاصرين، الذي اتفق الجميع على هضم حقه وتجاهل جهوده وأعماله، حتى أولئك الذين كانوا قريبين منه لم يجشموا أنفسهم عناء التعريف به وبآثاره العلمية الرائدة التي كانت تملأ المكتبات الجزائرية خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، آثار بلغت الستين كتابا أو أكثر ومئات المقالات في الجرائد والمجلات ظلّ ينشرها منذ الأربعينيات وهي آثار ليست بالهينة ولا بالقليلة الأهمية وإنما هي مراجع ذات قيمة علمية عالية لاسيما البحث في تاريخ الجزائر والمغرب الإسلامي فخصص له الكثير من جهده ووقته وانبرى لدراسته والتأليف فيه منجزا العديد من الدارسات والمؤلفات التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع فقد ألف عدّة كتب عن الدول التي نشأت وحكمت في الجزائر والمغرب الإسلامي منها سقوط غرناطة بالإضافة إلى ترجمة عدّة مؤلفات منها مذكرات الكولونيل "سكوت" عن إقامته في زمالة المير عبد القادر 1841 عن الإنجليزية سنة 1981 وهي من النصوص القلائل التي نقلت صورة عن عادات وتقاليد المغرب العربي في ظل النظام القبلي، كما نقلت أوضاع المرأة والمسيحيين واليهود وصورة الأمير المؤسطرة في بداية الاستعمار، أما كتاب سقوط غرناطة للكاتب الأمريكي "واشنطن إيرفنج" الذي وجدته أقرب إلى الرواية التاريخية منه إلى كتاب التاريخ سلاسة وروعة أسلوبه وجمال اللفظ والسرد المحبوك الممتع، وكان هذا جزء من الترجمات التي قدمها إسماعيل العربي لنقل المعرفة من اللّغات

الجنبية إلى اللغة العربية ونظرت الشعوب الأخرى لدول العالم العربي والإسلامي وكل هذا بغية التعرف على الآخر ونمط تفكير الآخر خدمة للمجتمعات النامية.

اهتم الرحالة الإنجليز ابتداءً من سنة 1830 بدراسة العادات والتقاليد في المجتمعات الشرقية، لما لاحظوه عن هذه المجتمعات من كسل منتشر بين الجماهير فاهتموا بكشف الأذواق والضرورات الاجتماعية التي تحكم حياة الناس عن طريق الرؤيا المباشرة والمعايشة والحضور الشخصي محاولين تمييز ما يخص العرب عن الأتراك.

اهتم الكولونيل "سكوت" بزيّ الجنود في الجزائر الذي يتمازج فيه الذوق التركي والعربي وخاصة جانب التنظيم الذي كان التأثر فيه بالتقاليد العسكرية الفرنسية (خاصة جيش الأمير)، كما اهتم بالزي اليومي الاجتماعيّ الذي يعكس الانتماء الطبقي والذي تعود دلالاته لعهود تاريخيّة سابقة ومظاهر حياتيّة وسياسية متنوعة تعرض لها[8].

يعتبر البحث عن صورتك في كتابات الاخر محكا حقيقيا لمنهجيتك الموضوعيّة فأنت أمام ذاتك بعيون الآخرين، فتجدك تاريخك لا كما عهدته ومقدساتك خرافات ومفاهيمك تاريخيّة ثقافيّة وعاداتك من غيرك تثاقفا، ولكن روح العلم تفرض عليك قبول نتائج منهجه مهما كانت، فيمكنك أن تعيد تأسيس ذاتك في إطار الآخر الذي غيبته قرونا وهو معك.

إن المتمعن في رحلة الكولونيل "سكوت" يدرك مدى خصوصية المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها مقاومة الأمير عبد القادر حيث أحيا من جديد الصراع الإسلامي المسيحي المتمثل في المقاومة الجزائرية والاستعمار الفرنسي.

ظلّت صورة المسيحي عند المسلمين نمطيّة، ترجع تاريخيّاً إلى ظروف انتشار الإسلام والحروب الصّليبيّة، ولكن داخل الصورة توجد تفاصيل جديدة، فلم يعد المسيحيّ معتنق المسيحيّة فقط بل تهدد دولته الفرنسية هل هو فرنسي أم إنجليزي أم إسباني وهذا يفرق كثيراً عما كانت عليه صورة المسيحي سابقا.

ظلّ الغربيّ يرسم المرأة المسلمة صورة مستمدة من عالم الحريم المؤسسة على الغرائبيّة والجنس، ولم يشر "سكوت" لأثرها الاجتماعي او مشاركتها في المقاومة.

التنوع الثقافي الاجتماعي والخرافي للمجتمع الجزائري لما فيه من تداخل عرقي ديني، وهذا التداخل يحكمه المركز والهامش.

عن رحلة الكولونيل هذا وغيرها من الأعمال عن مجتمعنا لها من الأهميّة في تاريخنا الثقافي والاجتماعي والسياسي في مرحلة تراجعنا فيها عن صناعة التاريخ أمام الآخر الذي يرسم ذاته في مرآتنا كمقابل له حضاريّا ودينيّا وجغرافيّاً.

أما منهج إسماعيل العربي هذا الكاتب المغمور في الكتابة التاريخية وتحقيق المخطوط فقد اتّسم بميزتين هما:

إحداهما وثائقيّة تاريخيّة دلّ عليها اهتمامه بالتنقيب عن نفائس المخطوطات وتحقيقها، وأخرى تحليليّة مقارنة لمواضيع تاريخيّة جغرافيّة مختلفة شملت بلاد المغرب والأندلس وكان سقوط غرناطة مثالا لذلك، بالإضافة إلى ترجمته للعربيّة عدّة كتب ذات صلة بتاريخها، واستيفاء من مضمون أعماله بحثة في إشكالية إعادة كتابة تاريخ المنطقة بصورة مخالفة للكابت التاريخية الاستعماريّة. وتهافت المستشرقين والمستعربين الذين سخروا أنفسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لمساعدة الاستعمار على فهم عقليّة المسلمين، ولذلك جاءت اختياراته المقدمة للقارئ العربي في شكل ترجمات لكتب متوازنة ومنصفة –إلى حدّ ما– للحضارة الإسلامية في مبادرة منه لعرض نظرة غير المسلمين لتاريخنا، بينما اعتمد في أبحاثه عن مقاربات منهجيّة ركّز فيها على جمع مادّة مستفادة من مصادرنا التّراثيّة، فجاءت عناوين مواضيعه مختلفة الطر الزمانيّة والمكانيّة، ولكنّها متجانسة من حيث منهجيّة طرحها كمداخل تمهيديّة لإشكالات تاريخيّة وجغرافيّة لمنطقة الغرب الإسلامي غير أنّ ما يؤخذ على الكتابة التاريخيّة عند إسماعيل العربي هو انحصارها في النّمط التّقليدي القائم على السّرد أحيانا، والمعالجة السّطحيّة للمادة أحيانا أخرى، دون محاولته الاستفادة من

مختلف المناهج التاريخيّة الحديثة، واعتاد النّقدي منها قصد تقديم إسهامات موضوعيّة بعيدة عن النظرة الذاتيّة والإطراء الإيجابي.

بينما يتجلى حسّه النقدي بصورة واضحة في دراسته التاريخيّة وترجمته لسقوط غرناطة حيث فتح هامشاً للنقاش حول دور العصبية القبلية في ظهور الدولة وتماسكها واندثارها وسقوطها وإن تغيّر الموطن وتبدلت الظروف.

"ولا تخلو تحقيقاته من جهود واضحة في خدمة التراث الإسلامي بعيداً عن النظرة الاستشراقيّة التي طغت عليه خدمة للأهداف الاستعماريّة المبنيّة على التشويه أحياناً والتشكيك أحياناً أخرى، وأن ما شاب منهجه في التحقيق أو الترجمات لا يخرجه بأيّ حال عن دائرة أشهر المنقبين عن كنوز إرثنا المخبوء"[9].

سقوط غرناطة للكاتب (واشنطون إيرفينج) وهو أقرب إلى الرواية التاريخية منه إلى كتاب التاريخ بسلاسة وروعة أسلوب وجمال اللفظ والسرد المحبوك الممتع.

هذا الكاتب الأمريكي (واشنطون) كان يشغل منصبا رفيعاً في السفارة الأمريكية بإسبانيا عام 1826 حيث كلف بالقيام بأبحاث عن حياة (كريستوف كولومبوس) ورحلاته وفي خضم أبحاثه في المكتبات اكتشف المعالم الأساسية للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس التي أبهر بها وانتهت بسقوط غرناطة في يد الملكين (فرديناند وإيزاند وإيزابيلا وإيزابيلك) وبالتالي إنتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس عام 1492.

استقر هذا الكاتب في غرناطة في إحدى الشقق التي لا تزال تحمل اسمه في قصر الحمراء حيث شرع من موقع الحدث في تأليف هذا الكتاب سنة 1828 والذي نشر للمرة الأولى عام 1832، وفي مقدمة المخطوطات التي اعتمد عليها المؤلف كثيراً كتاب كبير الحجم للقسيس (أنطونيو أجابيدا) الذي كان معاصرا للأحداث إضافة إلى مؤرخين كبار آخرين، الكتاب يروي بتتبع مراحل سقوط غرناطة معركة بعد أخرى ومن قلعة إلى أخرى، حيث حاول الكاتب أن يكون موضوعيا قدر الإمكان حسب ما توفر لديه من مراجع ومخطوطات يقول: "عندما كنت أقرأ فجر كل يوم جزء من هذا الكتاب كنت أشعر وكأنني حاضر بين تلك

المواقع والتلال والقلاع والمعارك التي خاضها المسلمون والأندلسيون بشجاعة وتضحية دفاعا عن آخر معاقل الإسلام ف ي الأندلس، أخرج عند انتصارهم وأغتنم عند هزيمتهم،، الهزيمة في غرناطة كان لها أسباب داخلية وأخرى خارجية..."[10].

٧. خاتمة:

يعتبر البحث عن صورتك في كتابات الآخر محكّاً حقيقياً لمنهجيتك الموضوعيّة؛ فأنت أمام ذاتك بعيون الآخرين، فتجد تاريخك لاكما عهدته ومقدساتك خرافات ومفاهيمك تاريخية ثقافية وعاداتك من غيرك تثاقفاً، ولكن روح العلم تفرض عليك قبول نتائج منهجه مهما كانت، فيمكنك أن تعيد تأسيس ذاتك في إطار الآخر الذي غيبته قرونا وهو معك.

إن المتمعن في رحلة الكولونيل اسكوت يدرك مدى خصوصية المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها مقاومة الأمير عبد القادر حيث أحيا من جديد الصراع الإسلامي المسيحي المتمثل في المقاومة الجزائريّة والاستعمار الفرنسي.

ظلّت صورة المسيحي عند المسلمين نمطية ترجع إلى تاريخ ظهور انتشار الإسلام والحروب الصليبية، ولكن داخل الصورة توجد تفاصيل جديدة، فلم يعد المسيحي معتنق المسيحية فقط، بل تهم دولته الوطنية، هل هو فرنسي أم إنجليزي أم إسباني.. وهذا يفرق كثيراً عما كانت عليه صورة المسيحي سابقاً.

استمرارية تقوقع الإثنية اليهودية رغم نشاطها الاقتصادي الفعال.

ظلّ الغربي يرسم للمرأة المسلمة صورة مستمدة من عالم الحريم المؤسسة على الغرائبية والجنس، ولم يشر اسكوت لأثرها الاجتماعي أو لمشاركتها في المقاومة.

التنوع الثقافي الاجتماعي والخرافي للمجتمع المغاربي لما فيه من تداخل عرقي ديني، وهذا التداخل يحكمه المركز والهامش.

إن رحلة الكولونيل اسكوت وغيرها من الأعمال عن مجتمعاتنا المغاربية لها من الأهمية في في تاريخنا الثقافي والاجتماعي والسياسي؛ في مرحلة تراجعنا فيها عن صناعة التاريخ أمام الآخر الذي يرسم ذاته في مرآتنا كمقابل له حضريا ودينيا وجغرافيا.

VI. المصادر والمراجع:

1. الكولونيل اسكوت 1981، مذكرة الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص46.
2. زوبير بن سخري، صورة المجتمع المغاربي برحلة الكولونيل اسكوت، مجلة مواقف، ديسمبر 2017، ص146.
3. المرجع نفسه، ص138.
4. الحبيب حاكمي، إسماعيل العربي حياته ومنهجه في التراث، مجلة عصور، 2012، ص86.
5. آنيا لومبا في نظرية الاستعمار ترجمة محمد عبد الغني غنون، سوريا، ص85.
6. دومينيك سوردين، الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة علي المقلد، دار التنوير، ص32.
7. عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، المؤسسة العربية للدراسات، ص143.
8. زوبير بن سخري، صورة المجتمع المغاربي برحلة الكولونيل اسكوت، مجلة مواقف، ديسمبر 2017، ص 123.
9. الموسوعة العربية العالمية، النسخة الإلكترونية، جويل رضوان، الرحالة الإنجليز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
10. الحبيب حاكمي، إسماعيل العربي حياته ومنهجه في التراث، مجلة عصور، 2012، ص 88.